السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(١٧)

لَقَدْ حَيَّرنَا وَاللهِ!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

« ... وَلَـٰكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُون »

لَـٰكِنْ يَا أَحِبَّتِي البَرَاعِمَ تَعَالَوا نَتَساءَلْ : مَاذَا فَعَـلَ الصَّحـابَـةُ الضِّعَـافُ أَمَـامَ اسْتِهْـزَاءِ المُشْرِكِيْنَ ، وَعُدْوَانِهِمْ و... ؟!

في البِدَايَةِ جَاؤُوا إلىٰ رَسُولِ الله ﷺ يَشْكُونَ الحَالَ ، كَمَا في رِوَايَةِ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ الله عَنْهُ ؛ قَالَ : شَكَوْنَا إلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ ؛ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظِلِّ الكَعْبَةِ ، قُلْنَا لَهُ : ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلا تَدْعو الله لَنَا ؟

قَالَ : « كَانَ الرَّجُلُ فِيْمَنْ قَبْلَكُم يُحْفَرُ لَهُ في الأَرْض ، فَيُجْعَلُ فِيْهِ ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ

عَلىٰ رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ ، مَا يَصُدُّه ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ ، وَاللهِ! لِيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ ، حَتَّىٰ يَسِيْرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتٍ لا يَخافُ إلا اللهَ أَوِ الذِّئبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُوْنَ » .

* * *

« أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيْدِ »

لَـٰكِنْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِدِ المُشْرِكُوْنَ شَيْئاً ، بَلْ عَلَىٰ العَكْسِ تَمَاماً ، فَالمُسْلِمُونَ يَزْدَادُونَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ ، وَالمُشْرِكُونَ يَكَادُونَ أَنْ يَمُوتُوا مِنْ شِدَّة الحِقْدِ ، والغَيْظِ .

فَلَجَؤوا إِلىٰ أُسْلُوبٍ آخَرَ عَلَّهُمْ يَسْتَفِيْدُوا مِنْهُ شَيْئاً ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الإِغْرَاءَاتِ :

تَرْوِي كُتُبُ السِّيْرَةِ : أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيْعَةَ ـ وَكَانَ سَيِّداً حَلِيْمَاً ـ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ في نَادِي قُرَيْشٍ ، بَيْنَما كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جَالِساً وَحْدَهُ في المَسْجِدِ الحَرَامِ ، قَالَ : يَا مَعْشَرَ

قُرَيشٍ ، ألا أَقُوْمُ إلىٰ هَذَا فَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أمُوراً ؛ لَعَلَّه يَقْبَلُ بَعْضَها ، وَيَكُفُّ عَنَّا ؟

قَالُوا : بَلىٰ يَا أَبَا الوَلِيْد! فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا بْنَ أَخِي! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ[1] في العَشِيْرَةِ ، وَالمَكَانِ في النَّسبِ ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيْمٍ ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلامَهُم ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِيْنهم ، وَكَفَّرْتَ مَنْ مَضىٰ مِنْ آبَائِهِمْ ، فَاسْمَعْ مِنِّي أعرضْ عَلَيكَ أُمُوراً تَنْظُر فِيْها لَعَلَّكَ تَقْبَل مِنَها بَعْضَها .

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « قُلْ يَا أَبَا الوَلِيْدِ! أَسْمَعْ » .

قَالَ : يَا بْنَ أَخِي! إِنْ كُنْتَ تُرِيْدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ

---

(١) أي : السِّيادة ، والقوَّة ، والشّرف .

مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالاً ؛ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوالِنَا حتَّىٰ تَكُوْنَ أَكْثَرَنَا مَالاً ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيْدُ مُلْكاً ؛ مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذي يَأْتِيْكَ رَئِيًّاً تَرَاهُ[1] لا تَسْتَطِيْعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ ، وبَذَلْنَا فِيْهِ أَمْوالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّما غَلَبَ التَّابِعُ عَلَىٰ الرَّجُلِ حتَّىٰ يُداوَىٰ مِنْهُ .

حتَّىٰ إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ ؛ قَال :

« أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيْد ؟! » .

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : « فَاسْمَعْ مِنِّي » .

قَالَ : أَفْعَلُ .

---

(١) أي : نوعاً من السِّحر ، أو المناماتِ وَمَا إلىٰ هُنَالك .

فَقَرأَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنَ بِدَايَاتِ سُوْرَةِ فُصِّلَتْ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلىٰ قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1] .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَعُدْ عُتْبَةُ يَتَحَمَّل مَا حَدَثَ ، فَقَفَزَ إِلىٰ الرَّسول ﷺ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلىٰ فَمِهِ ، وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ!!

* * *

(١) سورة فصلت : ١٣ .

« وَاللهِ يَا عَمُّ!... »

وَذَاتَ يَوْمٍ اقْتَرَحَ أَحَدُ كِبَارِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ جَمَاعَتِهِ أَنْ يَلْجَؤوا إلىٰ المُفَاوَضاتِ ، بَدَلاً مِنَ الاسْتِهْزَاء ، وَالتَّعْذِيْبِ...

وَانْتَخَبُوا وَفْداً يَتَأَلَّفُ مِنْ كِبَارِهِم ، وَزُعَمَائِهِم ، وَذَهَبُوا إلىٰ عَمِّهِ أَبي طَالبٍ ، وَهُنَاكَ قَالَ أَحَدُهُم :

يَا أَبَا طَالِبٍ! إنَّ لَكَ سِنَّاً ، وَشَرَفاً ، وَمَنْزِلَةً فِيْنَا ، وَإنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ[1] مِنِ ابْنِ أَخِيْكَ فَلَمْ

---

(١) أي : طلبنا منك أن تنهىٰ ابن أخيك عن أن يتعرض لآلهتنا .

تَنْهَهُ عَنَّا ، وَإِنَّا وَاللهِ! لا نَصْبِرُ عَلَىٰ هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا ، وَتَسْفِيهِ أَحْلامِنْا ، فَإِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنَّا ، أَوْ تَتْرُكَهُ لَنَا!!

لَـٰكِنْ يَا أَحِبَّتِي البَرَاعِم : مَاذَا كَانَ مَوْقِفُ أَبي طَالِبٍ مِنْ تِلْكَ المُفَاوَضَاتِ ؟

لَقَدْ بَعَثَ إِلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ وَعَرضَ عَلَيْهِ الأَمْرَ ، فَرَأَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : أَنَّ عَمَّه قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ ، فَوَقَفَ بِكُلِّ ثَبَاتٍ ، وَحَزْمٍ ، وَقَالَ : « يَا عَمُّ! وَاللهِ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ في يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ في يَسَارِي ، عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ دُوْنَهُ!! » .

عِنْدَئِذٍ عَلِمَ أَبُو طَالِبٍ أَنَّ لابْنِ أَخِيْه شَأْناً آخَرَ ، فَانْطَلَق إِلىٰ نادي قُرَيْشٍ ، وَأَعْلَنَ تَأْيِيْدَهُ

الكَامِلَ لِلرَّسُولِ ، وأَنَّه لَنْ يَدَعَهُ حتَّىٰ في أَحْلَكِ الظُّروفِ!!

* * *

إِذَاً ؛ فَلاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ!!

وَحَارَ المُشْرِكُونَ في كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الدِّيْنِ الحَنِيْفِ ، وَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ : فَمَا هُوَ السَّبِيْل النَاجِحُ لِلصَّدِّ عَنْهُ ؟!

قَالَ أَحَدُهُم : إِنَّ لِهَذَا الكَلاَمِ الَّذِيْ يَتْلُوْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ سِحْرٌ عَظِيمٌ ، فَتَعَالوا لِنَتَعاهَدَ عَلَىٰ أَلا نَسْتَمِعَ لَهُ أَبَدَاً ، وَقَالَ آخَرُ : وَكُلَّما عَلِمْنَا أَنَّهُ يُرِيْدُ التِّلاوَةَ ؛ رُحْنَا نُصَفِّقُ بِأَيْدِيْنَا ، وَنُشَوِّشُ ، وَنَصْخَبُ ، وَمَا إِلىٰ هُنَالِكَ!!

مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة فصلت : ٢٦ .

أَسْئِلَةٌ تَعْجِيْزِيَّةٌ!!

وَاقْتَرَحَ أَحَدُ الصَّنَادِيدِ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ يَنْتَقُوا عِدَّةَ أَسْئِلَةٍ تَعْجِيْزِيَّةٍ ؛ لِيُحْرِجُوا بِهَا الرَّسُولَ ﷺ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَبَيْنَما كَانَ الرَّسُولُ يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، أَوْقَفَهُ أَحَدُ المُشْرِكِيْنَ وَقَالَ لَهُ : أَرضنا صَحْراءُ ، لا أَنْهارَ فيها وَلا أَشْجَار ، فَاطْلُبْ مِنْ رَبِّكَ أَنْ يُبْعِدَ عَنْ مَكَّةَ هَـٰذِهِ الجِبَالَ ، وَيُفَجِّرَ فيها الأَنْهَارَ ، وَيُنبتَ فيها الأَشْجَارَ!!

وَقَالَ مُشْرِكٌ آخَرُ : يَا مُحَمَّد! لَوْ كُنْتَ صَادِقاً

حَقّاً ؛ فَأحْي لَنَا بَعْضَ أَجْدادِنَا لِنَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَدُوْرُ بَعْدَ المَوْتِ!!

وَقَالَ ثَالِثٌ : بَلْ اطْلُبْ مِنْ رَبِّكَ أَنْ يَبْعَثَ لَنَا مَلَكاً نَتَكَلَّم مَعَهُ!

... ورسول الله ﷺ صَابِرٌ لاَ يَتَكَلَّم ، إنَّمَا يَنْتَظِرُ الوَحْيَ لِيَرُدَّ عَلَيْهِمْ .

فَقَالَ أَحَدُ عُتَاتِهِم : يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنَا عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ .

فَأَنْزَلَ الله تَعَالىٰ آياتٍ مِنْ سُوْرَة الكَهْفِ ، وَفِيْها حِكَايَةُ أَهْلِ الكَهْفِ .

وَطَلَبَ آخَرُ أَنْ يَتَكَلَّم لَهُمْ عَنْ (ذِيْ القَرْنَيْنِ) ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالىٰ آيَاتٍ مِنْ سُوْرَةِ الْكَهْفِ تتحَدَّثُ عَنْ (ذِيْ القَرْنَيْنِ) .

وَرَاحَ أَحَدُهُمْ يجادِلُ في قَضِيَّة الرُّوح ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالىٰ قَوْلَه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] .

لَـٰكِنْ مَاذَا اسْتَفَادَ المُشْرِكُوْنَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْد لله رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * *

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .